كتاب الشباب

عفاريت الشاطئ المهجور



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

عفاريت الشاطئ المهجور

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

عفاريت الشاطئ المهجور – الرياض

٤٠ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٩-٠٦-٤٠-٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – السعودية أ– العنوان

ديوي ٨١٣٫٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٢٥

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٢٥ ردمك: ٩-٠٦-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

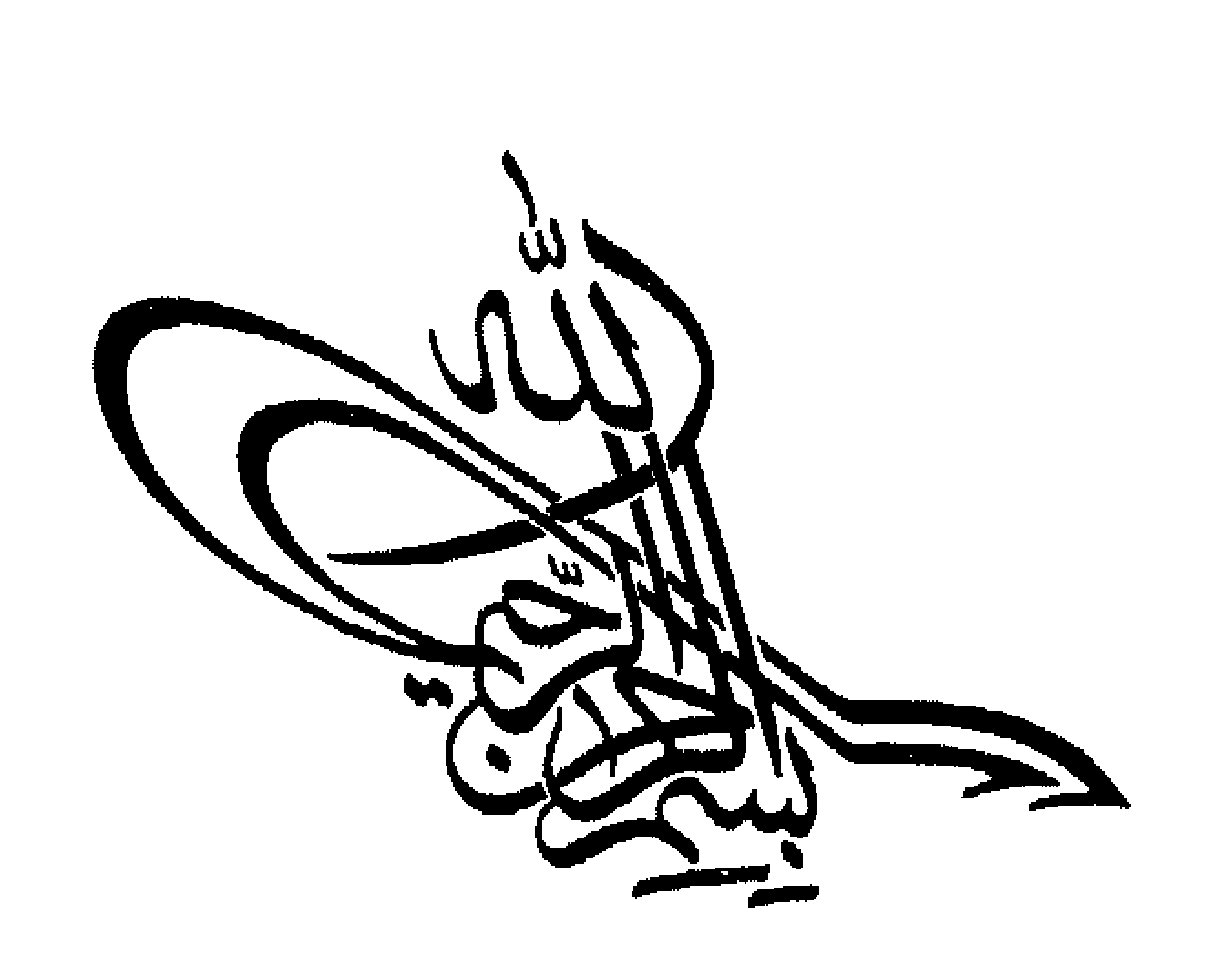
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



لم يتوقَّعْ أحدٌ منا أن تنتهيَ تلك الرحلةُ المدرسيةُ البريئةُ تلك النهايةَ العجيبةَ، ولا أن تتخلَّلَها، منذُ بدايَتِها، تلك الأحداثُ والمغامراتُ الغريبةُ!

كنا حوالِي عِشرينَ تلميذًا، في القسم النهائي (بالمدرسةِ القرآنيةِ) الابتدائيةِ بأصيلةَ. وكان أستاذُنا محمد الحسَّاني قدِ اقترحَ علينا التبرُّعَ بمبلغٍ صغيرٍ كُلَّ أسبوعٍ لصندوقِ القسْمِ. لم يقُلْ لنا الهدفَ من ذلك، ولم نتجرَّأْ نحن على سُؤالِه. فأستاذُنا أعرفُ بما يفعَلُ. فاجتَمَعَ لنا مبلغٌ لا بأسَ به في نهايةِ السنةِ الدراسيةِ.

وبعد الامتحاناتِ وتوزيعِ الشهاداتِ والجوائزِ على المتفوِّقين في حفلٍ كبيرٍ اجتمعنا وقرَّرْنا أن نذهبَ في رحلةٍ مدرسيةٍ، إلي إحدَى المُنتزهاتِ القريبةِ من المدينةِ.

وقع اختيارُنا على شاطئِ (سيدي مُغيثٍ) الذهبيِّ الجميلِ. وكان يبعُدُ عنِ المدينةِ بحوالِي خمسةَ عشَرَ كيلو مترًا جنوبًا. وتواعدْنَا على اللقاءِ ببابِ المدرسةِ القرآنيةِ بعد صلاةِ الفجرِ.

والتقينا هناك. وكان مغيثٌ قد تطوَّعَ بحِمارِ بُسْتانِ والدِهِ لحمْلِ أثقالِ الرحلةِ. ولو كان أطلَّ من نافذةِ الغيبِ على ما كان سيحدُثُ أثناءَ تلك الرحلةِ، لتركَ الحمارَ مكانَهُ، وبقيَ معه!

* * *

أخذنا طريقَ الراجلين الشاطئيةَ. كان جمالُها يَبْهَرُ الناظرين. على يسارِنا كانت البساتينُ الفيحاءُ والحقولُ الخضراءُ، وعلى يمينِنَا المحيطُ الأطلسيُّ، نُطِلُّ عليهِ من ارتفاعٍ شاهقٍ، وأمواجُه تتكسَّرُ بعنُفٍ وإصرارٍ على صخورِ الشاطئِ السوداءِ.

وأشرقتِ الشمسُ علينا، وقد قطعنا نحوَ كيلومترين. ورغمَ عنْفِ طباعِ أولئك المراهقين وانشغالِ بعضِهِم بمُشَاغبةِ البعضِ، فقد أسكَتَتْهُم هدْأةُ الشروقِ ومنظرُ الشمسِ الأُرجُوانية الهائلة، وهي تُطِلُّ من وراءِ التلالِ الشرقيةِ، مُبشِّرَةً بميلادِ يومٍ جديد...

وتوقفنا جميعًا عنِ السيرِ، باستثناءِ الحمارِ وصاحِبِه، فقد

كان يخشى عليه من أن يجْنَحَ عنِ الطريقِ، ويسقطَ من الجرفِ العالي إلى البحرِ المتلاطِمِ الأَمواجِ، وتنبَّهِ أحدُنا إلى منظرِ مدينتنا، وقد كست أَشعةُ الشمسِ أسوارَها وأبراجَها السبعةَ القديمةَ بلونٍ ذهبي بهيجٍ. كانت تبدو كإحدَى قلاعِ صلاحِ الدينِ الأيوبي، فتُعيدُنا إلى عصرِهِ المجيد.

وأيقظَنَا من خشوعِنا الشاعريِّ وقْعُ كفٍّ خَشِنَةٍ على قَفَا. والتفتنا جميعًا لنَجِدَ محمداً الموساوي يبحثُ عن صافِعِهِ. وكان ملقبًا عند رفقائه بـ«عَويرَة». أطلقوا عليه هذا اللقبَ البشِعَ، لمجرَّدِ حَوَلٍ بسيطٍ في عينِهِ اليُسرى.

وبالمناسبةِ، كان جميعُ التلاميذ يحملون ألقابًا مضحكةً، أطلقَها عليهم رفاقُهم بقسْوةٍ رهيبةٍ. وذلك رغم ترديدِهم كالبَبَّغاوَاتِ للآيةَ الكريمةَ ﴿ولا تَنَابزوا بالألْقابِ﴾. وكان أصحابُ العاهاتِ الجسديةِ، كيفما كانت صغيرةً، أوّل وأسهلُ هدفٍ لمخترِعي الألقابِ. فكان هناك الأعوَرُ والأعرَجُ والأحوَلُ والأفطَسُ والأفْقَمُ والأطرشُ والأبكَمُ والزحَّافُ، وغيرهُمْ مما لا يخطُرُ على بالِ بَشَرٍ سَوِيٍّ!

والتفتَ عوِّيرةُ باحثًا عمَّن صفَعَه، فإذا صديقُه وغريمُه «البوكيتْ» يقفُ خلفَه ضاحكًا مُتَشَفِّيًا. وحين هَمَّ هذا بالارتماءِ عليه، أشار البوكيتُ إلى عبدِالسلامِ الملقَّبِ بالأَفْطَسِ، مُقْسِمًا أنه هو الفاعِلُ.

ولم يُصدِّقْهُ عوِّيرةُ فارْتَمَى عليه واشتبكَا في عِراك كاد يُؤدِّي بهما إلى السُّقوطِ في البحْرِ من أَعْلَى الجرُفِ...

ولم تكن تلك المعركةَ الأُولَى من نوعِها، فمعاركُ البوكيت وعوِّيرةَ سارتْ بحديثِها الرُّكبانُ! كانا يشتبكانِ بمجردِ خروجِهِما من المدرسةِ، بعد دروسِ العصرِ. وكانت تلك طريقتُهُما في تصريفِ طاقتِهِما الفائضةِ التي يختزنها الجسدان الفتيَّان أثناءَ القُعودِ الطويلِ أمامَ لوحِ القرآنِ وأمامَ سبُّورَةِ القسمِ. كان يكفي لإشعالِ فتيلِ القتالِ بينهما أن نقولَ لأحدِهِما إنَ الآخرَ أقْوَى منه، أو إنه غَلَبهَ.

وتدخل مُغيثُ والأفطسُ لفَكِّ الاشتباكِ واستئنافِ السيرِ. ورفع العشَّابُ عقيرَتَهُ بنشيدٍ وطني، وكان له صوتٌ جميلٌ ويميلُ إلى الموسيقى، فحذونا حذْوَهُ.

وبالمناسبةِ، كان سببُ تسميةِ البوكيتِ بهذا الاسْمِ الغريبِ يرجعُ إلى شبَهِهِ الكبيرِ بأحدِ أبطالِ السينما الأطفالِ، آنذاك، كان يُدْعَى «بوكيتا»

* * *

وانحدرَتِ الطريقُ بنا إلى وادٍ كثيفِ النباتِ شديدِ الخُضرةِ، يجرِي في باطنِهِ غديرٌ بين قَصَبٍ عالٍ. وتوقَّفَ محمدُ المباركُ عن الإنشادِ، وأدخلَ ظُفْرَي أُصبُعَيْهِ الوُسْطَيَيْنِ في ظُفْرَي إبْهامَيْهِ، وأخذَ يتلُو المعوِّذَتَين. وسكتنا نحنُ عن الإنشادِ بالتدريجِ، وبدأ التهامُسُ بيننا عمَّاذا أسكَتَ المباركَ، وجعلَه يسْتعيذُ بربِّ الفَلقِ من شرِّ ما خَلَقَ. وكان قد أُلقْيَ في روْعنا أنها سورةٌ لا تُقرَأ إلا في الأماكنِ المسكونةِ، وعند الخوفِ من الجنِّ والعفاريت...

واجتمعنا عليه نسألُه، فَقَدْ كان أوَّلَنا في الدراسةِ، فهمس لنا، وكأنه كان يخشَى أن تسمَعَهُ أُذُنٌ خفيةٌ:

«ألم تسمعُوا بغديرِ الكْنَاوي؟»

والْتَفَتَ حواليهِ، وأضافَ:

« نحن الآن في وسطِه! وكلٌّ من دخله، دون أن يقرأَ سورةَ الفلقِ، تتعاوَرُهُ الجنٌّ وتتقمَّصُهُ، وتذهبُ به طائرًا في الهواء إلى أن تُلقِيَ به في (خَنْدَقِ التُّركِي) جثَّةً هامدة! »

وأصابَنا الفَزَعُ، واقْشَعَرَّتْ جُلودُنا، ووقف الشعَرُ القصيرُ في رؤوسِنا، وتكتَّلنا حولَه، كقطيعِ غَنَمٍ في سوقِ عيدِ الأضحَى، حتى عَصَرْناه! وليدفَعَنا عنه، قال لنا:

« اقرأُوا معي. »

ورفع صوتَه الجهورِي بسُورةِ الفلقِ، وتبِعناه، فامتلأتْ الغابةُ بأصواتِنا، وَفزِعَ الوحيشُ وصفَّقتِ الطيورُ بأجنِحَتها، مبتعدةً عن وُكُنَاتِها، وتكوَّرَتِ القنافذُ، وقفزتِ الأرانبُ من حولنا، وزحفتِ السحالي والحيَّاتُ الصغيرةُ، وارتفعتْ أصواتُ ابن آوىَ من بعيدٍ، مستنكِرةً احتلالَ حَرَمِها وإقْلاقَ راحَتِها.

وطردتِ السورةُ الخوفَ من قُلوبِنا، فأخذْنَا نصيحُ بكلِماتِها في كُلِّ اتجاهٍ، وكأننا نرمي المَرَدَةَ والشياطينَ بوابلٍ من رَصاصٍ! وتشجَّعَ عوَيِّرةُ فتقدَّمَ الصفَّ في الممرِّ الضيقِ الرطبِ،

وهو يُتبِعُ كَلِماتِ السورةِ بِلَكَمَاتٍ قويةٍ من قبضَتيْهِ في الهَواءِ، وكأنه يلاكِمُ مخلوقاتٍ خفيةً. وتبِعَه البوكيتُ، وتحوَّل الخوف إلى فُرْجَةٍ على البهلوانَيْنِ!

وخرجنا من غديرِ الكَنَاوي، وصعِدْنا الأكَمَةَ الفاصلة بينه وبين (خندقِ التركي)، وظهَرَ البحرُ على يميننا بأُفُقِهِ الواسعِ الشاسعِ، فتنفسنا الصُّعَداءَ، وكأننا كنَّا نقطعُ نهْرًا من القِطْرانِ الخاثرِ، حابِسي الأنفاسِ!

* * *

وزال الفزعُ، وعادتِ الابتساماتُ إلى الوجوهِ، إلا وجهَ محمدٍ بن المباركِ، فقد ظلَّ عابِسًا جامدًا.

فخندقُ التركي، كما عرفنا من ابنِ المباركِ، فيما بعد، لا يَقِلُّ عن غديرِ الكناوي وحْشَةً ورهبةً. فقد نَسَجَ الناسُ حولَه الحكاياتِ والأساطيرَ المرعِشَةَ للأبدانِ والأرواحِ. ففيه يسكُنُ (حَمُّو قَيوُّ)، زوجُ (عَيْشَةَ قنديشَةَ) العملاقُ الغيورُ على زوجتِهِ الشابَّةِ الجميلةِ اللَّعُوبِ. وفيه يظهرُ هذا العملاقُ للناسِ في الظهْرِ الأحمَرِ، ويُطِلُّ عليهم من أَعْلَى، كنخلةٍ باسقةٍ،

فيجْمُدُون في أماكنهم، وتتوقَّفُ قلوبُهم، وتخرج أرواحُهم، وهم واقفون!

وفيه سمِعَ شابٌّ من سكَّانِ قريةِ (تِنْدَافِلَ) القريبةِ صوتَ نَواح امرأةٍ واستغاثَتِها بِهِ من قاطعِ طريقٍ، فأسْرَعَ إلى نجدَتِهَا. وحين رآهُ المعتدِي هَرَبَ. وأقبلَ الشابُّ عليها فابتسمت له. ووقَعَتْ عيناه على ساقَيْهَا، فإذا هُمَا سَاقا بهيمةٍ! ومدَّت إليهِ ذِراعَيْهَا، فسقَط مَغْشيًّا عليه، وحين أفاقَ كان قد فقد عقلَه!

وفي هذا الخندقِ المسكونِ بأرواحِ الشياطينِ مرَّ رجلٌ راكبٌ حِمارًا، وأخذ يضربُهُ ضربًا موجِعًا ليخرُجَ بسرعةٍ من الخندقِ، فالْتَفَتَ الحمارُ إليه، وقال له: « كَفَى، يا أخي! فلستَ وحْدَكَ الخائفَ! أنا كذلك أكادُ أَنهقُ منَ الفزَعِ! »

ونظر الراكبُ إلى وجْهِ حمارِهِ، فإذا هو وجْهُ رجلٍ من قريتِهِ كان قد مات منذُ بضعِ سِنينَ!

ويحكي بعض الثِّقاتِ من (قرية العَقْبَةِ) أنهم عَثَروا فيه على خَمْسِ جُثْثٍ عاريةٍ على جانِبَي الطريقِ. وحين اقتربُوا منها وهم يُسبِّحون، ويقرأونَ سورةَ (يس)، نهضتْ الجُثَثُ حيَّةً، وأطْلَقَتَ سيقانَها للريحِ، واختفتْ في الهوَاءِ!

استحضر ابن المبارك كلَّ هذه الوقائع، وهو ينزل الأكَمَةَ إلى (خندقِ التركي)، فلم يبتسِمْ، ولم ينشرِحْ صدرُه لرؤيةِ البحرِ، كبقيةِ رفاقِه. وما بدأ الانحدارُ حتى رفع صوتَه (بآية الكُرسي): «اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ الحيُّ القيُّومُ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نوم...»

ورفَعَ ذراعَيهِ في خُشَوعٍ واستسْلامٍ، وأخذ ينْحَني، طاعةً لأهلِ المكانِ وتسليما بقدراتِهم الخارقةِ. ومُجَرَّدُ قراءَةِ آيةِ الكُرسي في هذه الأماكنِ المهجورةِ المعزولةِ المُوحشةِ، تُوحي لمن يعبُرُها بأنها مسكونةٌ بأشباحِ الموتَى وأرواحِ الساقطين في معارِكِ التحريرِ بين المسلمين والبُرتُغاليين والأسبان.

وسرتْ من صوتِهِ المرتَعِشِ وبدَنِهِ المرتجِفِ موجةُ خوفٍ إلى الجميعِ. وأخذ الذين سمِعوا حكاياتِ خندقِ التُّركي يحكُونها لمن لم يسْمعوها، فانتشَرَ بينهم رعبٌ حقيقيٌّ، وارتعدتِ القرائِصُ، واصْطَكَّتِ الأسنانُ، وجَحَظَتِ العيونُ، وأمسكَتِ الأيدي بالأذْرُعِ، خشيةَ مَسِّ الجنِّ أو الصَّعقِ أو الاختطافِ...

* * *

وفي هذا الجوِّ المشحونِ بالهَلَعِ، بلغت الأرواحُ التَّراقِيَ والقُلوبُ الحناجِرَ، في انتظارِ الضربةِ القاضيةِ . . .

وفي هذه اللحظةِ، ظهرَ على يمينِنا رأسٌ كبير يطفو فوقَ الأعشابِ، يُراقِبُنَا بوجهٍ جامدٍ!

وطارتِ النفوسُ شَعاعًا، وأفْلتَ الزمامُ منِ ابنِ المباركِ، وأعمضَ البوكيتُ عينيهِ، وأطلَقَ ساقيهِ للريحِ، وهو يصرُخُ: «النجدة! النجدة! أنقذوني! والله لن أعودَ أبدًا!»

تماماً كما يفعَلُ دائمًا، عندما يأمُرُ الفقيهُ برفْعِ رجليهِ للعَصَا. وتبِعَه عَوِّيرةُ وبقيةُ القطيعِ، وركضَ ابنُ المباركِ خلفهما، وهو ينظرُ وراءَه ويصيح:

«انتظروني!»

ولم يتوقفوا حتى خرجوا من الخندقِ اللعينِ، وتركوه وراءهم . . .

وبقي مغيثُ وحدَه، يضرِبُ الحمارَ بشدَّةٍ، ليلْحَقَ بالهاربين، غير عابئٍ بالأَحْذيةِ والطَّواقي والأغطيةِ والوسائد التي تركوها خلفَهم، وينظرُ حواليهِ في كل اتجاهٍ، وقد أجحَظَ الخوفُ عينيهِ، وشَنَّجَ جسَدَه.

لقد كانَ الخَوفُ يملأُ قَلْبَهُ، إنَّهُ يخشَى أنْ يخْرُجَ لَهُ عِفْرِيتٌ يَخْتَطِفُهُ أَو يُؤْذِيهِ، ولكن شيئًا من ذلكَ لَمْ يحدُثْ لِمُغيثٍ، رغمَ تمنِّي الجماعةِ وإخلاصِها في الدُّعاءِ أن يقَعَ شيءٌ مثلُه، ليتفرَّجوا عليه، ويحكُوه لِحَفَدَتِهم وحفَّارِي قُبورِهم!

وبقيَ مغيثُ يضربُ الحمارَ، ويصرُخُ فيه، ليُسْرِعَ في الخروجِ من وادي العفاريتِ.

وشعرَ الحمارُ بخوفِ صاحبِه، فانتقلَ إليه الخوفُ هُو الآخرُ.

وبَدَلَ أن يُسْرِعَ، أخذ يحْرِنُ ويسيرُ بالعَرْضِ. وسقطَ من فوقِ ظهرِه الكبشُ المسلوخُ، فاضُطَّر مغيثُ إلى حمْلِه على كتِفِه والجرْيِ وراءَ الحمارِ الناهق.

* * *

وفجأةً، حدثَ ما لم يكنْ في الحُسْبانِ. وكأنَّ اللهَ استجابَ لدعواتِ الغلمانِ، فظَهَرَ لهم شَبَحٌ مُلْتَفٌّ في السوادِ، يخرجُ من بينِ الأعشابِ الطويلةِ، ويمشي خلْفَ مغيثٍ، وكأنه مرفوعٌ في الهواءِ ويداهُ ممدودَتَانِ إليه!

وانقلبَ شعورُ الأولادِ إلى خوفٍ على رفيقِهم، فأخذوا يصيحون، مُنَبِّهين ومُحذِّرين: «اجْرِ يا مغيثُ! انظرْ وراءَك! العفريتُ سَيُمسكُ بك!»

وقبل أن يلتَفتَ مُغيثٌ، أحسَّ بأحدٍ يمسكُ الكبْشَ من كُرَاعَيْه الخلفيتين، والتفتَ إلى اليمينِ، فجذَبَ الشبَحُ الكبشَ إلى اليسارِ، والتفتَ إلى اليسارِ فاختفَى الشبَحُ جانبَ اليمين.

ولم يتحرَّك أحدٌ من الجماعةِ لإغاثَتِه، فقد سمَّرَهُم الخوفُ في أماكِنِهم. ولكنَّ الأفطسَ الذي كان مكلَّفًا بتموين الرحلةِ، والذي اشتَرَى الكبشَ من أخيه الجزَّارِ، تغلَّبَ على خوفِه، ورفع عصًا كانت في يدِه، وأطْلَقَ صيحةً من النوعِ الذي كان يطلِقُه عَنتَرَةُ بنُ شدَّادٍ، قبلَ دخولِه المعركةَ، ليُرْهِبَ العَدْوَّ، حسبَ ما كان يسمَعُه في حلقاتِ القصَّاصين والمدَّاحين بالسُّوقِ، ونزلَ المنحَدَرَ كجُلْمودِ صخْرٍ...

وكان مغيثُ قد ترك الكبشَ العاريَ للشبحِ، وأطلَقَ ساقَيْه للريحِ، ناجيًا بنفسِه. واختفى الشبحُ بالكبشِ، بيْن الأعشابِ

العاليةِ. ودخل خلفَهُ الأفطَسُ، فوجد نفسَه في متاهَةٍ من النباتاتِ الكثيفةِ. كان مدفوعًا بغريزةِ الحيوانِ الذي يدافِعُ عن فريستَهِ.

كان مَلْءُ البطنِ مسألةَ حياةٍ أو موتٍ، في تلك السنواتِ العِجافِ العسيرةِ من الأربعينياتِ. فقد ساعَدَتِ الحربُ العالميةُ الثانيةُ والجفافُ الطويلُ، بمنطقةِ الريفِ، على شُحِّ الموادِّ الغذائيةِ. فجاعَ الناسُ، وعانَتِ الأسرُ الكثيرةُ العيالِ شَظَفَ العَيْشِ. كان الخبزُ مقَنّنًا بنصفِ خُبزةٍ صغيرةٍ للفردِ، وكان الأمواتُ يُكَفَّنونَ في الجرائدِ، لقلَّةِ القُماشِ، بسببِ تحويلِ كلِّ الموادِّ الغذائيةِ وغيرِها إلى جَبَهاتِ القتالِ.

* * *

وجدَ الأفطسُ نفسَه هائمًا في المتاهةِ الخضراءِ. وكان سريعَ الغَضَبِ، فأخذ يضرِبُ الأعشابَ حواليهِ بعَصاهُ، ويصيحُ:

«اخرج! اخرج، أيها اللِّصُّ الحقيرُ!»

وأخذَ يسرِدُ كل ما كان في قاموسِه الطويلِ من شتائمٍ، ويتوعَّدُ السارقَ بما سيصيبُه على يدِهِ من عَذابٍ، حتى ولو

كان (حمُّو قَيُّو) أو (عيشة قَنْديشَةَ) . . . وأخذ يرتفِعُ على بَنانِ قدميه، ليرَى ما حولَه من فوقِ الأعشابِ، فترامَى إلى سمْعِه صوتُ بُكاءٍ حزينٍ مُتقطِّعٍ. وأرهَفَ سمعَه، وتحرَّكَ في اتجاهِه كما يتسلَّلُ الفهدُ نحو فريسَتِه الغافلةِ.

واقترب من مصدَرِ النحيبِ، وشقَّ القصبَ الرقيقَ بيديه وأطَلَّ، فإذا (وُلْدْ عْظيمو)، وقد وضَعَ الكبشَ أمامَه وجلسَ، ويداهُ على وجهِهِ وكأنه مُنْخَرِطٌ في نحيبٍ مُرٍّ. وحين اقترب منه الأفطس رفع يديه عن وجهه، وقد أَخَذَتْهُ نوبةٌ من الضَّحِكِ العنيفِ! كان قد رأى الأفطسَ قادمًا، فاختفَى وانتظرَهُ حتى اقترَبَ. وحين رآه يُطِلُّ عليه من بين القصبِ، وضع سبابَتَه على فَمِه، طالبًا منه السُّكوتَ.

وانشرحَ صدرُ الأفطسِ، بعد أن أدركَ أن العمليةَ كانت مجردَ مِقْلَبٍ من مقالبِ ابنِ حَوْمَتِه الذي اعتادَ على مثلِها منه. فخاطبَه عْظيمو في الذهابِ بالحولي إلى أحدِ الكُهُوفِ القريبةِ، وشَيِّهِ واقتسامِه مناصَفَةً بينهما، وتركِ الأولادِ يظنونَ أن العفاريتَ فتكَتْ به، هو الآخرُ! وشَمَّ الأفطسُ رائحةَ الشواءِ

اللذيذ بمنخرِهِ الواسعِ لمجرَّدِ ذكرِهِ، فكاد يُغْمَى عليه من النَّشْوَةِ، وكاد يُوافِقُ. ولكنه حرَّكَ رأسَه، نابذاً الفكرةَ. وأنَّبَهُ ضميرُهُ لمجرَّدِ خُطُورِ الفِكرةِ في بَالِه. فنهضَ وقال لعظيمو:

«قُمْ، قم، ياللَّهْ! تعالَ أنتَ معَنا، لِتَطْهُوَ الطعامَ، وتأْكلَ نصيبَك من الخروفِ حلالاً طيبًا. فلا أحدَ منا يعرِف الطَّهْي. ولا أضمَنُ لك أن تذهَبَ بعيداً بالخروفِ، وهؤلاء يطاردونك في البرارِي!»

وخرج وُلْدْ عظيمو الطويلُ العريضُ إلى الطريقِ، حاملاً الكبشَ على كتِفِه وَوراءَه الأفطسُ رافعًا عَصاهُ، وكأنه قبَضَ على العفريتِ بقوةِ ساعدَيْه. ورأى الأولادُ المشهَدَ من فوقِ التَّلِّ، فهلَّلوا وكبَّروا، وهتفوا بحياةِ الأفطسِ، قاهرِ المَرَدَةِ والشياطين!

* * *

وكان عظيمو شخصيةً مُحَبَّبَةً عند تلاميذِ المدرسةِ، رغم أنهم كانوا يعُدُّونَه شخصًا طاعنًا في السِّنِّ، لبلُوغِهِ السادسةَ والعشرين. وفرِح الأولادُ لوجودِه بينَهم، لحاجَتِهِم الغامضةِ إلى

شخصٍ أكبرَ سِنًّا، يكونُ سُلطةً عُلْيَا للفصلِ فيما قد ينْشُبُ بينهُم من نِزاعاتٍ، وما أكثَرَها، ولحمايَتَهم في الشاطئ الموحِشِ الذي سيُقيمون به ثلاثةَ أيامٍ بلياليها.

ووضع الكبشَ على الحمارِ، وتعلَّقَ به الصغارُ، سُعَداءَ فَرِحِين. وحتى مُغيثُ الذي وقع في مِقْلَبِه، لم يزدْ على أن وَكَزَهُ على كَتِفِه، ودفعه دفعةً قويةً لم تُزَعْزِعْ هيكَلَه الثقيلَ.

ونظر البوكيتُ إلى وجْهِ عظيمو، وصاح:

«انظروا، إنه الرأْس الذي كان يطفو فوقَ الأعشابِ، ليُفْزِعَنَا!»

وابتسمَ عظيمو، مُؤكِّداً كلامَه، وراضيًا عن نجاحِ عمليتِه لِبَثِّ الرُّعبِ في الأولادِ. وهي عمليةٌ لا غِنى عنها في مثلِ هذه التجَمُّعاتِ...

وبانقِشاعِ ضبابِ الصُّبْحِ، واختِفاءِ عَتَمَةِ الغَلَسِ، وخُروجِ الجماعةِ من غديرِ الكناوي وخندقِ التُّرْكي السيئ الذِّكْرِ، هدأتِ النفوسُ وارْتختِ الأعصابُ، وتعلَّقَ الأولادُ بولْد عظيمو طالبين منه أن يحْكيَ لهم حكاية من حكاياته. وبعدَ

تَمَنُّعٍ فاترٍ، لان لهم وأخذَ يحكي القصةَ التي كان يحكيها، وكأنه أحدُ أبطالِها، والتي كانت مُبَرِّرَ اصْطِحابِه، في عددٍ من رحلاتِ التنزهِ، دون دَفْعِ حصَّتِه.

ولم يُقاطِعْ مسيرةَ الثُّلَّةِ المُنْصِتَه الهائِمَةِ في الخيالِ إلا وُقوعُها في كمينٍ من الكلابِ الضالَّةِ التي أحاطتْ بهم، وأخذتْ تنبُحُهُم، وتُكَشِّرُ عن أنيابِها، وقد سالَ لُعَابُها، وتوحَّشَتْ عيونُها. فدخلوا مَعها في معركةٍ بالعكاكيزِ والحجارَةِ. ودخلَ حجَرٌ فَمَ زعيمِها، فتوقَّفَ عن النبحِ، وانسحبت بقيةُ الكلابِ مهزومةً كسيرةً، وذيولها بين سيقانِها.

* * *

ومع العاشرةِ صباحًا، أطلَّت الجماعةُ على ضريحِ (سيدي مُغيثٍ) المُشْرِفِ على الشاطئ. كان الضريحُ عبارَةً عن غُرْفتين مُستطيلتين كبيرتين، أُولاهُما جامعٌ به مِحْرابٌ، والثانيةُ عريشٌ لاستقبالِ الزُّوارِ. ولم يكن بالضريح إلا قَيِّمُهُ العجوزُ الذي يُقيمُ بدارٍ قريبةٍ منه.

كان الجميع يتضَّورونَ جوعًا. فأصْدَرَ عبدالسلامِ أوامِرَهُ بتقسيمِ العمَلِ. وكان الشاطئُ المعزولُ والمهجورُ أغلبَ الوقتِ، والمتوحِّشُ بشكْلٍ مُحبَّبٍ، يُوحِي بالمغامَرَةِ. وكان عامرًا بالأخشابِ وقِطَعِ لِحاءِ شَجَرِ الفِلِّينِ التي ينبُذُها البَحْرُ. فَجَمَعْنَا ما يكفي منها لاسْتِعمالِهِ حطَبًا. وسُرْعانَ ما كان إبريقُ الماءِ يغْلي استعدادًا لشايِ الفُطورِ.

وجلستِ الجماعةُ صفَّينِ متقابلين، على قِطَعٍ من لحاء الفلين الموجودِ بكثرةٍ على الشاطئ. كانت مراكبُ الصيدِ تستعمِلُه لرفْعِ شِبَاكِها فوقَ الماء، لخفَّتِه وقوَّةِ طفْوِهِ. فكانت تُفْلِتُ منهم أعدادٌ كبيرةٌ منه، أثناءَ صِراعِهِم مع أسْرابِ التونِ الضخمةِ القويةِ. وفي وسَطِ الصفِّ المواجِهِ للبحْرِ كان يجلِسُ

عبدُ السلامِ، وأمامَه صينيةُ الشايِ، وإلى جانبِه بقيةُ أدَواتِه.

وكان البوكيتُ وعَوِّيرَةُ يجلسان بجانبَيه. أجلَسَهُمَا هو هناك ليفْصِلَ بينهما حتى لا يشتَبِكَا، وليسْهُلَ عليه صفْعُهُمَا ووكْزُهُما وقرصُهُما وجذبُ أُذُنَيْهما، إذا هُما فعلاَ ما لا يُرضيه.

وكَسَّرَ عظيمو قالَبَ السُّكَّرِ بحجرٍ أملَسٍ ووضع القِطَعَ في صفحةٍ أمامَ عبدِالسلامِ، إلى جانبِ أواني الشايِ والنعناعِ. ونظر البوكيتُ إلى السكرِ، فسالَ لُعابُه. وأَطَّلَّ من وراءِ رأسِ عبد السلامِ على غريمِه ومُنافسِه عَوِّيرة، ليتأكدَ من أنه لا ينظرُ في اتجاهِه، فوجده ينظُرُ إلى البحرِ. ومدَّ يده إلى قطعةِ سُكرٍ من التي وقَعَ عليها الحجَرُ، فجعلها هشَّةً ناعمةً تذُوبُ في الفَمِ، ووضعها في فَمِه، وأغمضَ عينيه في نشوةٍ عارِمَةٍ.

كان فمُهُ كاملَ الاستدَارةِ، وكانت شفَتَاه بارزتين مُشَقَّقَتين، وعيناه في شكْلِ هلالَينِ مقلُوبين إلى تَحْتُ في مشروعٍ جاهزٍ للضحكِ على الآخرين. وكان رأسُه أشبَهَ ما يكون بفُرْشاةٍ من الشَّعَرِ القصيرِ الشديدِ الشُّقرةِ والقائمِ، وكأن صاحِبَه في رُعْبٍ دائم.

كـان يظنُّ حين وضعَ قطعـةَ السكَّرِ في فـمِـهِ، أن عَوِّيرةَ لـم يَرَهُ. ولكنه كان مُخْطِئًا. فقد كان عويرةُ ذا حَوَلٍ حادٍّ في عينهِ اليـسـرَى، وكـان مِـثْلَه ينظرُ إلى صـفـحـة السكرِ، حين ظنَّه البوكيتُ ينظرُ إلى البحرِ. ولما رآى ما فعله غريمهُ، مدَّ يدَهُ هو الآخرُ، وتناولَ قطعـةَ سكر كبيرةً، وغرزَ فيها أسنانَه، مُحدِثًا صوتًا شبيها بـ « كَرْرْرْرْ. . . . »

وانتبـهَ بقـيـةُ القـاعـدين، فـأخـذوا يمُدُّون أيديهم إلى قِطَعِ السكرِ، حتى أوشكوا أن يُفرِغُوا الصفْحَةَ، وعبدُ السلامِ قاعدٌ، يُتابِعُ عملِيةَ النَّهْبِ السافرِ، بعينيهِ الواسعتين الشديدَتَيِ السوادِ وحاجبيْه الكثَّينِ المعقودين، وهو يتميَّزُ غيظًا، دون أن يفطِنَ له أحدٌ!

وتزلتِ القشَّةُ الأخيرةُ، حين نهضَ عبدُ العزيزِ العَمْرِي من مقعدِهِ، ورفع الصفْحَةَ وأفرَغَ ما بَقِيَ بها من سكَّرٍ في قَبِّ جلبابِهِ، وعاد إلى مكانِهِ، وحَنَكُه منفوخٌ بقطعةِ سكَّرٍ كبيرةٍ.

وفـجـأةً، تنبَّـهَ الجـمـيعُ إلى غـضَبِ عبـدِ السلامِ الأفطَسِ المكبوتِ والمُوشِكِ على الانفجارِ، فأطبق كلٌّ واحدٍ منهم فَمَه

على قطعةِ سكَّرِه، في محاولاتٍ فاشلةٍ لإخفائِها. وران الصَّمْتُ، ولم يعد يُسمَعُ إلاَّ صوتُ مَصٍّ مُهَّربٍ لماءِ السكر الذائب، وطوَّقَتْه العيونُ متوجِّسةً شرًّا. واسْتَعَدَّ الجميعُ للقفزِ والفِرارِ!

ونهضَ عبدُ السلامِ بهدوءٍ غيرِ معهودٍ فيه، في مثِل هذه المواقفِ. ووضع جلبابَهُ على كتِفِه، وتوجَّهَ إلى مستَوْدَعِ المُؤَنِ، ودخله ومكَثَ به قليلاً، والجميعُ يترقَّبُ. ثم خرج، وفوقَ كتِفِه الكبشُ المسلوخُ، وتوجَّهَ، وسَطَ دهشةِ الجميعِ، نحو الطريقِ المؤدِّيةِ إلى المدينةِ.

ولم يستطِعْ أحدٌ اعتِراضَ سبيلِه أو مخاطَبَتَهُ في الرجوعِ عن قرارِه المفاجِئِ. ونظر الجميعُ إلى عظيمو، فهو الوحيدُ الذي يستطيعُ التدخُّلَ، دون أن يتلقىَّ من عبدِالسلام نَبْحةً أو عَضَّةً أو صفْعةً أو لكْمةً أو ركْلَة في المؤخِّرةِ. وكان عظيمو يتفرَّجُ على الموقفِ، ويُقهْقِهُ قهقهتَه المكتومةَ الشبيهةَ بالبُكاءِ. وأحاطت به الجماعةُ، مُلتمِسَة، مُستعطِفةً أن يذهبَ لإقناعِ عبدِ السلامِ بالرجوعِ. فمسحَ عينيهِ، وقال لهم:

«لن أذهبَ حتى يُعيدَ كلٌّ واحدٍ ما أخذَه من سُكَّرٍ إلى مكانِهِ.»

وأعاد كلٌّ واحدٍ ما كان في يدِهِ أو قَبِّهِ. وهَمَّ أحَدُهم ببصْقِ ما كان في فَمِهِ في الصفحةِ، فتلقَّى صفعةً من عظيمو. وحَمَلَ هذا الصفحةَ وتبعَ عبدَ السلامِ مُهَرْوِلاً. وكان الآخرُ قد اختفَى وراءَ الأكَمَةِ.

ومضت بِضعُ دقائقَ حرجةٍ، في انتظارِ الوَساطةِ الصعبةِ. وبعد حوالَي عشرِ دقائقَ، عاد الاثنانِ والكبشُ محمولٌ بينهما. ولا تسألْ عن فرحةِ الجماعةِ وابتهاجِها بنجاحِ المُفَاوضة وعودةِ عبدِ السلامِ والكبشِ، أو بالأحرى الكبشِ وعبد السلام! ودخل بين تصفيقاتِهِمُ الحادَّةِ وهُتافِهِم بحياتِهِ وطبْطباتِهم على ظهرِهِ، وهو عابسٌ صامتٌ.

وأَمَرَهم عظيمو بالجلوسِ، ووقف فيهم خطيبًا: «كنتم على وَشَكِ إفسادِ هذه النزهةِ الجميلةِ!»

واغتنم الفرصةَ ليُظهِرَ مِنَّتَهُ علينا، ويبرِّرَ وجودَه معنا، فقال: «ولولا وجودي بينكم، ومحاولاتي المتكرِّرَةُ مع عبدِالسلامِ، ليرجعَ عن قرارِهِ، لانتهتِ الرِّحلةُ قبل أن تبدأ

وانْفَضَّ الجمعُ وعاد كل قطٍّ إلى رمادِه! ولكنَّ عبد السلام لم يقبلِ الرجوعَ إلا بشرطٍ... »

وتعلقتِ العيونُ بعبدِ السلامِ، فقال عظيمو: « وهو أن تطيعوه طاعةً عمياءَ! ومن عَصَى فالطريقُ أمامَه! »

وفي غمرةِ حرصِهم الشديدِ على استمرارِ النزهةِ، قبلوا الشرطَ المُجْحِفَ، دون أن يدركوا عواقبَه. وصفقوا معبرين عن الإجماعِ. وهنا ارتختْ أساريرُ عبدِ السلامِ، وضاق ثُقْبَا أنْفِهِ الأفطسِ، وزايَلَه الغضبُ.

وصُبَّتْ كؤوسُ الشايِ، ووُزِّعت قِطَعُ الخبزِ. وسُرعانَ ما الْتهَمَ كل واحدٍ نصيبَه. وأدخل عوِّيرةُ لسانَه في الكأسِ، يلْعَقُ جوانِبَها مِمَّا عَلِقَ بها من شاي. وارتفعتِ الأصواتُ بالأناشيدِ الحماسيةِ التي كان العِنَاني يستبدِلُ كلماتِها الجادَّةَ الوقورةَ بأخرى عابِثَةٍ مُضْحِكةٍ.

ونهض عبدُ السلامِ، وصفَّق بيديه آمراً الجماعةَ بالنزولِ إلى الشاطئِ، وإخْلاءِ المكانِ للإعدادِ للغَدَاءِ.

* * *

وعلى الشاطئ تكوَّنَ فريقان لِكُرةِ القدمِ. ولم يلْبَثْ البوكيتُ وعويرَة أن اشتَبَكَا وسَط الملعبِ!

وكان المشهَدُ يبدو من عريشِ الضريحِ مُثيراً. الفريقان يطاردان كُرَةَ مضربٍ في حجْمِ قبضةِ اليدِ، بأقدامٍ عاريةٍ صلَّبَها الحفاءُ الطويلُ، فيعلُو صوتُ اصطدامِها، كصوتِ لطْمِ الأحناكِ أو صفْعِ الأقْفيةِ! وترتفعُ الكرةُ في الهواءِ، فَتَشْرَئِبُّ الأعناقُ، وترتفِعُ الرؤوسُ لنطْحِهَا، وتُفْلِتُ الكرةُ، فتتناطحُ الرؤوسُ بأصواتٍ صمَّاءَ، وتلمعُ النجوُم أمام العيونِ، وتبرُزُ الأورامُ والكدَماتُ، وتَزْرَقُّ المحاجِرُ. كلُّ ذلك في غمرةِ هديرٍ لا ينقطِعُ من التحريضِ والتوسُّلِ، لتمريرِ الكرةِ، ثم السبِّ واللعنِ والَّلكْمِ والركْلِ والعضِّ والخدْشِ...

ويمرُّ الفريقان، كُتْلَةً واحدةً، فوق البوكيتِ وعَوَّيرَة المُلْتَفِّ أحدُهما بالآخر، في شكلِ كرةٍ كبيرةٍ حيَّةٍ، تَتَدَحْرَجُ من جانبِ الملعبِ إلى جانبِه الآخر.

وسأل عظيمو الذي كان مشغولاً بتقشيرِ البطاطس: «ماذا يفعلُ الأحمقان؟»

فأجابه عبدُ السلامِ: «عَوِّيرة يحاوِلُ فصلَ رأسِ البوكيتِ عن جسدِه. وأعتقدُ أنه في حاجةٍ إلى مساعدة.»

فعلَّق عظيمو: «لو أمكَنَ لِكِلَيْها أن يفصلَ رأسَ صاحبِه عن بقيتِه لكان أفضلَ. فهما أحسنُ بلا رأْسَين!»

ومرَّتِ الكتلةُ فوقَهُما، فداست عنُقَيْهما وبطنيْهما. وأعاد بعضُ اللاعبين الكرَّة ليسمَعَ الغرغَرَةَ العجيبةَ الصادرةَ عن البطنين من الجهتين.

وفي طريقِ عودةِ الفريقين من المرمَى، علاَ صُراخُ لاعِبَيْنِ وقع قدَمَاهُما بين فكَّيِ المتعاركَيْن. فقد تربَّصَا بالفريقين وارتميا على سيقانِ المعتدينَ منهم، وغرَزَا أسنانَهما فيها بحقدٍ انتقامي... وتعلم الفريقان، بعد ذلك، أن يتجنَّبا الكتلةَ المتدحْرِجة.

* * *

ونضجَ طعامُ الغداءِ، ووقف عظيمو وعبدُ السلامِ وأخوه المختارُ يدرسون استراتيجيةَ إطعامِ هؤلاءِ الذئابِ الجائعةِ في هدوء وانتظام، ودون مفاجآتٍ. فقرَّروا صَبَّ الطعامِ في

صحنينِ كبيرين، وتنظيمَ الجماعةِ في حلقتين حول مائدتين أرضيتين من لحاءِ الفلين، على أن يُشرِفَ كلٌّ من الأخوين على مائدةٍ. ووقف عظيمو يدقُّ بمِغْرَفَةٍ خشبيَّةٍ على طنجرَةٍ فارغةٍ، وما سمع الفريقان القَرْعَ اللذيذَ حتى سال لعابُهم، وتركوا الكرةَ في الملعبِ، وهبُّوا راكضين يسابقون الريحَ إلى حيثُ المائدتان.

وكوَّنوا حلقتين، ووُزِّعتْ عليهم قِطعُ الخبزِ، فغرزوا فيها أسنانَهم لاهثين. وأمسكَ المختارُ بقضيبِ سَفَرْجَلٍ أسودَ رقيقٍ كالسوْطِ، وأخذ يلْويه بين يديْه، فوقَ رُؤوسِهم، ويقول منذراً:

«ستأكلون طعامَكم مثلَ الناسِ، بهدوءٍ تامٍّ وأدبٍ جَمٍّ فنحن مراقَبُون! عيونُ أبناءِ القُرَى المجاورةِ وسُكَّانِ هذا المقامِ كُلِّهِم علينا. ولا نريدُهم أن يأخذُوا عنا فكرةً سيئة.»

والتفتَ الجميعُ ينظرون حوالَيْهم، فلم يروا أحداً. فقال المختار:

«لا فائدةَ من البحثِ عنهم، فلن تروْهُم. إنهم خلْفَ أشجارِ التين الشوكِي وفوقَ أَشْجَارِ الفلين ومنبطِحون وراء الصخورِ فوق قِمَّةِ الجبلِ هناك، يرونكم ولا ترونَهم!»

وأقبلَ عظيمو بالصَّحن الكبيرِ العامرِ باللحمِ والبطاطس والبصَلِ والطماطم، تفوحُ منه رائحةٌ شهيَّةٌ. وتوجهت نحوَه العيونُ الجائعةُ فخالجه الخوف وتراجع، فقال المختارُ، ضاربًا بالقضيبِ الهواءَ ومحْدِثًا صفيرًا حادًّا:

« كلُّ من افترسَ، أو مدَّ يدَه إلى ما أمامَ الآخرين، سيجدُ هذا القضيبَ مُلْتويًا حول عُنقه، قبل أن تصلَ اللقمةُ إلي حُلْقومهِ! »

ولم يكن أحدٌ يسْمَعُ ما يقولُ أو يُلْقِي بالاً إلى تهديداتِه. كانوا يتعجَّلون نزولَ الصحنِ، ويشْرَئبُّون بأعناقِهم إلى ما فيه. وكان بعضُهم قد أعدَّ قطعةَ الخبزِ التي سيغمِسُها في المَرَقِ. ووضَع آخرُ صفًّا من قِطَعِ الخبز جاهزةً أمامَه، حتى لا يُضيعَ الوقتَ في القَطْعِ.

وأومأ عظيمو إلى المختارِ برأْسِه الكبيرِ المغطَّى بطاقيةٍ صوفيةٍ باليةٍ وبحاجبَيْهِ المقرونين، متسائلاً هل يضَعُ الصَّحنَ، فصاح فيه المختار:

« ماذا تنتظر!؟ ضعِ الصِّحنَ، وسأُرِيك ماذا سأفعَلُه بالفَوْضَوِيين! »

ووضع عظيمو الصحنَ داخلَ الحلقةِ وابتعدَ عنها، وكأنه أشعلَ فتيلَ قُنبلةٍ! وامتدَّتِ الأيدي إلى ما وقعت عليه من قطعِ اللحمِ الشهية، دون غيرها. واختلَطَ المضغُ بالتأوُّهِ لفَرْطِ سخونةِ الطعام.

وحدث ما كان يخشاه المختارُ، فقد كانت قطعُ اللحمِ أقلَّ من عددِ الآكلين. وانتظر المحرُومون أن يقتسِمَ المحظوظون قِطعَ اللحمِ الكبيرة معهم، دون جدوًى فلجؤوا إلى قانون الغابِ، كما يحدثُ عند كلِّ ظُلْمٍ. بدأ خطْفُ قطعِ اللحمِ من أيدي خاطفيها والهروبُ لافتراسِها بعيداً عن الجماعةِ.

وحاولَ المختارُ إرجاعَ النظامِ إلى مائدتِه، فوجد نفسَه يطاردُ أحدَ الهاربين. وطاردَ كلٌّ واحدٍ سارقَ لحمَتِه، إلاَّ عَوِّيرَة، فقد كان خاطفُ لحمتِه بطلاً في العدْوِ، ففضَّلَ أن يرفعَ الطبَقَ من وسَطِ الحلْقَةِ، ويضعَه فوقَ رأسِه، وينطلِقَ به إلى مكانٍ أمين لينفرد بأكلِه.

وما كان البوكيتُ ليسمحَ لغريمه بالفوزِ في مغامرتِه. فلَحِقَ به يطالبه باقتسامِ الصَّحنِ معه. وحين لم يلتفتْ إليه،

ارتمى على ساقَيْه وأوقعَه ووجهُهُ داخلَ الصّحنِ. وأغمضَ المختارُ عينيه وأخذ يُلوِّحُ بقضيبه ويهوِي به على كُلِّ من كان يتحرَّكُ!

أما الدائرة التي أشرفَ عليها عبدُ السلامِ الأفطسُ، فكانت أقلَّ حظًا من هذه. كان عبدُ السلامِ قد رأى ما انتهت إليه مائدة أخيه، فأراد أن يفرِضَ انضباطًا أشدَّ. فتناول عصا طويلةً، وشَمَّرَ عن ساعدَيْه، وأخذ يدورُ بجماعَته مُهدِّداً مُتَوعِّداً ويلوِّحُ بالعصا وهم ينظرون إلى حيث كان عظيمو يَحْمِلُ الصّحنَ وينتظرُ الإشارةَ لوضْعِه داخلَ الحَلْقةِ، فوقَفَ بينهُ وبينهم لينظروا إليه هو، وعضَّ على لِسانِه، وغمزَ بعينِه اليُسْرى في عصبيَّةٍ، وقال متصنِّعًا الهدوءَ الذي يسبِقُ العاصفةَ:

«سيضع عظيمو الصَّحنَ بينكم. وإذا مدَّ أحدُكم يدَهُ إليه خَبَطْتُه بهذِه العَصَا حتى ينْسَى اسْمَهُ وأُمَّه!»

فضحِك مصطفى الأَفْقَمُ، وقال:

«أهذا كلُّ شيء؟! أنا أَنْسَى اسْمي واسمَ أُمِّي وأبي، إذا جُعْتُ، دون عصا!»

واحتجَّ البوكيتُ قائلاً:

« لماذا إذن تضع الصَّحنَ إذا كُنْتَ ستمنعُنَا من الأكل؟ »

فقال عبد السلام، رافعًا العصا فوق رأسه:

« أنا أعني أن يمدَّ يدَه قبلَ أن أَعُدَّ ثلاثة! »

وأومأ إلى عظيمو الذي كان واقفًا ينتظِرُ الإشارةَ، والصحنُ بين يديه: « تعالَ! »

فتردَّد عظيمو وكأنه يأمرُهُ بالقفز من طائرةٍ دون مظلَّةٍ، فصاح فيه عبدُ السلامِ: « تعال، لا تخفْ! »

ووضع ركبَتَهُ على ظهرِ عويَرة الذي كان أكثرَ الجماعةِ تحفُّزاً للانقضاضِ، ليردَعَه وليَفْسَحَ الطريقَ لعظيمو. ووضع عظيمو الصحنَ وابتعدَ، وكأنه رمَى بمتَفَجِّرٍ. ونظر الجميعُ إلى الصحنِ بعيونٍ جاحِظَةٍ، وكلٌّ واحدٍ يرشُمُ قطعة اللحم التي سيرتَمي عليها وينتظِرُ العدَّ!

وما كاد عبدُ السلام يصيحُ: « واحد! » حتى امتدَّتِ الأيدي إلى الصحنِ، فنزل في المتسرِّعين ركلاً وصفْعًا ونخسًا بالعصَا حتى كفُّوا أيديَهم. وكان الزموري قد مدَّ يدَه لخطفِ لحمةٍ

كبيرةٍ كانت أمامَ أشهبارٍ، فردَّها حين نزلت وكْزةٌ على قفاه. وحين صاح عبدُالسلام: «اثنان!» بصقَ أشهبارُ بصقةً مشتَّتةً في الصّحنِ، فَهَوَتِ العصا على ظهرِهِ وصرخَ فيه عبدُالسلامِ:

«لماذا فعلتَ ذلك، أيها الخنزير؟!»

فردَّ، وهو مقوَّسُ الظهر: «حتى لا يخطَفَ الزموري لحمتي!»

ولم يكد يُتمُّها حتى راح كلٌّ واحدٍ يبصقُ في المكانِ الذي أمامَهُ من الصحنِ! وأُصيبَ (حسنُ الغريبُ) بالغَثيانِ، وكان قميئًا ضعيفَ البنيةِ، وفتح فَمه فوقَ الصحنِ، وطفِقَ يزعَقُ، مهددًا بإفْراغِ ما في جوفِه! فامتدَّتِ الأيدي بجنونٍ إلى الصحنِ في محاولةٍ لإنقاذِ ما يمكنُ إنقاذهُ. واندلَقَ كلُّ ما كان بالصحنِ على اللحاءِ.

ولما لم يكن في جوفِ الغريب الجائع ما يُفرِغُه، فقد بقي ممدودَ العُنُقِ، محتَقَنَ الوجهِ، جاحظَ العينين، يزعَقُ مثل ديكٍ مذبوحٍ ولا يلفِظُ شيئًا، والجماعةُ تلتقِطُ ما وقعَ على الأرضِ، وتحشُو به أفواهَها. وجُنَّ جنونُ عبدالسلام، فراح يخبِطُ فيهم

بعصاه خبْطَ عشواءَ، حتى انفرطتِ الدائرةُ وتشتتَ القومُ وابتعدَ كلٌّ واحد بغنيمته، ينهشُهَا ويبلَعُ، دون مضْغٍ.

ووقف عبدُالسلامِ يَبْصَقُ في اتجاهِهم بصوتٍ عالٍ ويردِّدُ:

« تْفُو عليكم، أولادَ السوقِ! الجنسُ الرذيلُ! »

وعظيمو ينظرُ إليهم بدمٍ باردٍ، كمن اعتادَ على مثلِ هذه المواقفِ.

وعقدَ الثلاثَةُ اجتماعًا. وانضمَمْنا إليهم أنا ومُغيثٌ وابن المباركِ وبعضُ الساخطين. لا يمكنُ أن يستمرَّ الوضعُ هكذا! حربٌ طاحنةٌ عند كلِّ وجبةٍ! لابدَّ من التفكيرِ في حل.

وتفتقت عبقريةُ عظيمو عنِ الحلِّ. قال:

« يجبُ أن نعاملَهم معاملةَ المختونين. »

فسألنا: « كيف؟ »

فقال: « نضعُ لهم الطبيخَ داخلَ قِطَعِ الخبز، فينفرِدُ كلُّ واحدٍ بطعامِه، وبذلك نتجنَّبُ مُشكلَةَ الأكلِ الجماعي وما يجرُّهُ من فوضى. »

ووافق الجميعُ على الفكرةِ.

* * *

وفي ذلك المساء، وزّعتْ شطائرُ اللحْمِ والباطسِ، وانزوَى كلٌّ واحدٍ بشطيرتِه يأكلُها بهدوءٍ واطمئنان.

وجلسَ حمّادُ يأكلُ بأَنَاةٍ، رغمَ جُوعِهِ الشديدِ، ويقضِمُ من أطرافِ شطيرتِه قَضَماتٍ صغيرةً، ويطيلُ المضغَ، ليشعُرَ بلذةٍ أكبرَ ونشوةٍ أعمقَ. وكانت شطيرتُه تحتوي على قطعةِ لحمٍ بيضاءَ من صدْرِ فَرْخةٍ، فأكلَ كُلَّ ما عداها، وتركها كختمٍ يختِم به وجْبَتَه.

وكان عبدُ العزيزِ العَمْرِي الملقَّبِ بالغدَّارِ، يعرفُ عادَتَه هذه، فَأَتَى على شطيرَتِه بسُرْعَةٍ وجلس يُراقِبُه بعينيه الزرقاوين الغادرتين، حتى إذا بلعَ حمَّادُ آخر لُقمةٍ، وهمَّ بوضعِ قطعةِ اللحمِ المختارةِ في فمِه، مرَّ العمْرِي به وصاح: «انتظر! ثَمَّةَ شعْرةٌ في لُقمَتِك!»

ورفعها حمادٌ لينظرَ إليها، فخطفَها العمْري من يدِه بسُرعةِ هَبِّ الريح، وحشَا بها فمَه وانطلقَ راكضًا في اتجاهِ البحر. وصعِقَ حمّادٌ فترك مكانَه وانطلقَ خلفَه كالجَمَلِ الهائجِ، وكان طويلاً مُرْتَبِكَ الحركةِ، والعمْري خفيفًا سريعًا

كالقرد، مراوغًا كالثعلبِ. فكان يقفُ لحمَّادٍ، دون أن يلتفتَ لينظرَ إليه، ويبقَى واقفًا ينتظرُ وصولَه، بدمٍ بارد، حتى يُصبِحَ قابَ قوسٍ منه، فيتنحَّي جانبًا، ويترُكُهُ يرتمي في الهواءِ ويسقُطُ أرضًا على وجهِه!

ووقف الجميعُ يتفرَّجون على المطاردَةِ الشبيهةِ بمصارعةِ الثيران، ويصيحُون كما يصيحُ الإسبان، مشجِّعين بصوتٍ واحدٍ: «أُولي!» عندَ كلِّ مراوغةٍ.

وفي آخر سقطةٍ لحماد، وقد خارت قُواه وأخذَ يلهثُ، عاد العمري ووضعَ رجلَه على قَفَا المسكين، ورفعَ يدَه اليمنَى في حركةِ انتصارٍ مَسْرَحيةٍ، وأخذ ينحنِي لتصفيقاتِ الجماعةِ وهُتافِها.

واغتنم حمادُ فرصةَ انشغالِ العمْري بنشوةِ انتصارِه وغُرورِه، فأمسكَ بالرِجْلِ الدائسةِ لِقَفَاهُ بيدٍ ككمَّاشةِ الحديد، وسحَبَه بقوةٍ فأوقعَهُ على عينِ قفاهُ على الأرضِ! ووقف كالعِمْلاَق الجريحِ وأمسكَ برجلَيه وأخذَ يجرُّهُ فوقَ الرملِ، وهذا يستعطفُه ويستغيثُ بالجماعةِ، وهم يصفِّقون لحمادٍ، كما صفقوا للعمري قبلَه!

وحين اقترب من ماءِ البحرِ، رفعَه من رجلَيه في الهواءِ، وأخذ يدورُ به حولَه، والآخرُ يتَّقي الأرضَ بيديه، وقد أطلَقَ صرخةً طويلةً دون انقطاع . . .

وحين أحسَّ حمادٌ بالدوارِ، طوَّحَ بضحيتِه إلى البحرِ كالكبشِ المذبوحِ ووقف يمسحُ منه يديه.

* * *

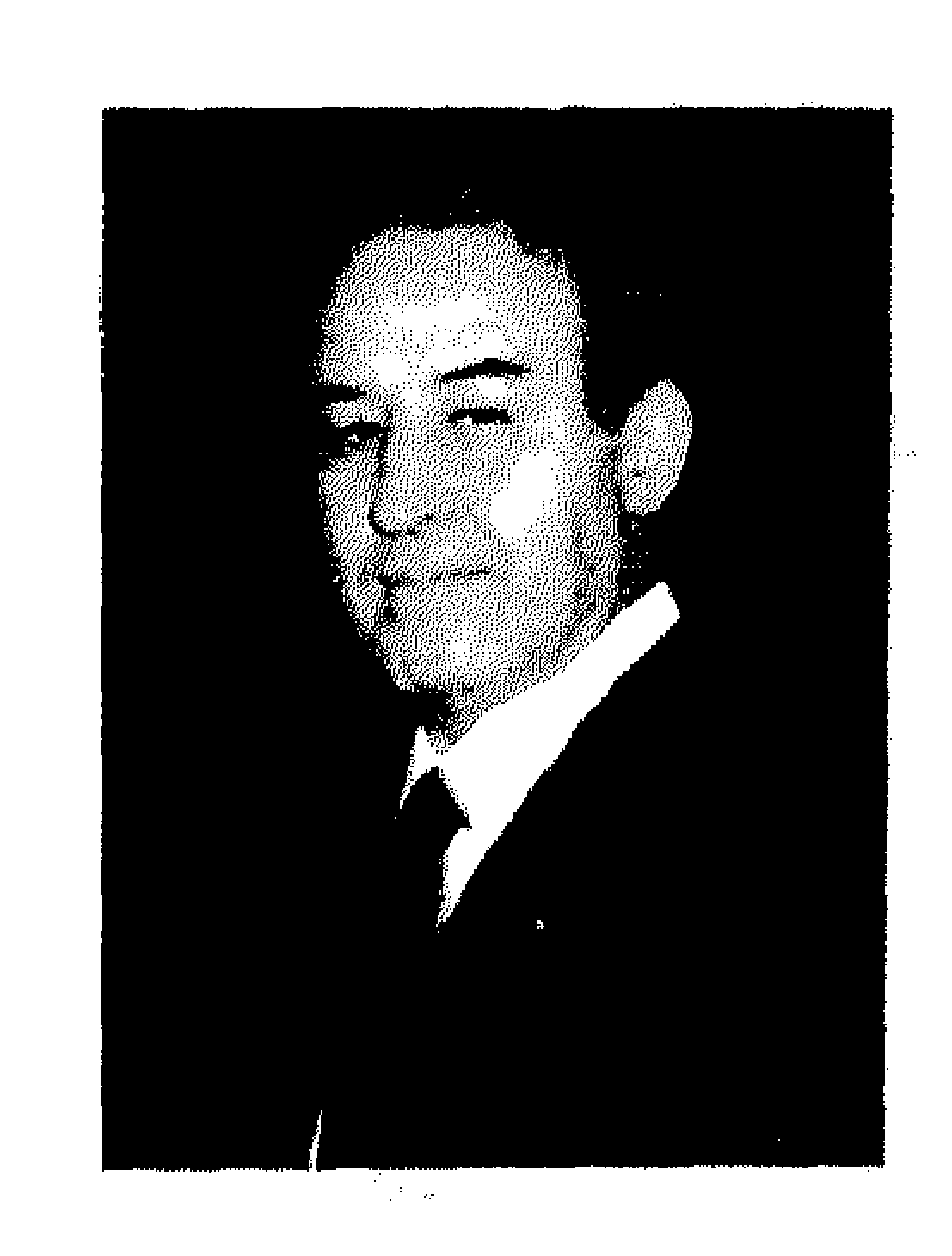
واستمرت رحلتُنَا هكذا، عامرةً بالمفاجآتِ المسلِّيةِ والمواقفِ الضاحكةِ التي علِقَتْ بذاكرَتِنا أمداً طويلاً. وتحقَّق ما كنا نأملُه جميعًا منها، وهو نسيانُ رفيقِنا العَرْبي الجبُيَري لأحْزانِه وآلامِه على فراقِ والدِه العزيز . . .

وأهمُّ ممَّا حدث في اليومِ الأولِ لهذه الرحلةِ ما حدثَ في ليلةِ اليومِ الثاني! وهي حكاية الوثائق المسروقةِ التي كان يحمِلُها الرجلُ الملَثَّمُ في جرابِ حصانِه وقد حكيتُها في القصةِ التاليةِ لهذهِ تحتَ عنوانِ « سرُّ الوثائقِ المسروقَة. »

* * *


العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي ، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » .

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس ، وخياله الخصب ، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى ، ومن عالم إلى آخر ، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد ، ويلقي الأضواء على عوالم بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الحديثة للشباب في العالم العربي .

